المركز القطري للصحافة
QATAR PRESS CENTER

من جنوب أفريقيا إلى فلسطين:

أليس من حق الشعوب تقرير مصيرها؟

التقرير رقم 7 يناير 2024

نشـــرت مجـــلة «كاونتربنتـش» Counterpunch مقـــالا بعنـــوان «فلسـطين: أعظـم قضيـة أخلاقيـة فـي عصرنـا» تقـول فيـه إنـه قبل وقـت طويـل مـن تقديـم جنـوب أفريقيـا دعـوى ضـد إسـرائيل لـدى محكمـة العـدل الدوليـة فـي 29 ديسـمبر 2023 بشـأن حـرب الإبـادة الجماعية التي شـنتها على غزة، كان هناك زعيمها الشـهير المناهض للفصـل العنصـري، نيلسـون مانـديلا، الـذي بـرز كرمز يجسـد النضال مـن أجـل العدالـة فـي جميـع أنحـاء العالـم؛ وهو الـذي قال قبـل ثلاثة عقـود: «إن فلسـطين كانـت أعظـم قضيـة أخلاقيـة فـي عصرنـا».

وما بين شعب جنوب أفريقيا الذي تحرر من النظام العنصري والاستعماري في التسعينيات بعد عقود من النضال، وشعب فلسطين الذي ما زال يرزح تحت احتلال عنصري استيطاني وحشي، تُنتهك تطلعات الشعوب في تقرير مصيرها. وقد كسب مانديلا مع مواطنيه معركته التحررية ضد الفصل العنصري في جنوب أفريقيا بدءًا من تسعينيات القرن العشرين، فيما لم يتحرر الفلسطينيون بعد من أغلال وشرور الفصل العنصري الاستعماري الاستيطاني في وطنهم، ولم يعيشوا أحراراً في بلدهم منذ أكثر من 75 عاماً. وفي 7 أكتوبر 2023، جاءت عملية طوفان الأقصى المستمرة منذ أكثر من ثلاثة أشهر في غزّة لمواجهة آلة الحرب الأميركية الإسرائيلية.

ويسود صمت غربي رهيب حيال المجازر التي يرتكبها الاحتلال، باستثناء بعض الساسة الأميركيين ووسائل الإعلام الأميركية، الذين يرزحون هم أنفسهم تحت الترهيب وسطوة التفكير الجماعي- فيكسرون صمتهم بشأن فلسطين أحيانا على مضض. ولكن ذلك لا يكفي، إذ لا يزال يتعين عليهم أن يعلنوا بوضوح أن إسرائيل ليست دولة ديمقراطية، بل هي كيان فصل عنصري؛ وأنها ليست أرضًا موعودة، وإنما هي مشروع استعماري استيطاني؛ وأنها ليست أمة تحت الحصار، وإنما معتدية؛ وأنها لا تدافع عن نفسها - كما تزعم، بل تشن حرب إبادة جماعية ضد الفلسطينيين في غزة.

إن الواقع يختلف عمّا يجب أن يكون عليه؛ حيث يواصل الداعمون لإسرائيل في أميركا والعالم وصف ذبح المدنيين الفلسطينيين وتدمير منازلهم في غزة المكتظة بالسكان بـ"الحرب" بين حماس وإسرائيل بدلاً من الإبادة، متجاوزين حقيقة وصف إسقاط أكثر من 80.000 طن من المواد شديدة الانفجار، بعضها يزن 2.000 رطل، لقتل المدنيين، بإنها إبادة شعب بأكمله بشكل منهجي .

سلب للأرض والهوية

إن الاستيلاء على وطن شعب يعني سلبه هويته وتاريخه وثقافته ومستقبله. وقد حاولت إسرائيل القيام بذلك منذ أن أعلن اليهود عن إقامة دولة لهم على الأراضي الفلسطينية في العام 1948. ولكن من خلال مقاومتهم المستمرة، أفشل الفلسطينيون مخطط الصهاينة بإقامة "إيرتس" أي إسرائيل الكبرى.

وقد ظلت الهوية الفلسطينية صامدة في ظل الحكم العثماني وخلال حقبة الانتداب البريطاني من العام 1922 إلى العام 1948، بينما ازدادت قوة نظام الفصل العنصري الإسرائيلي .

رغم ذلك، فإنّ علاقة الفلسطينيين بأرضهم عميقة وقائمة منذ أكثر من 3000 عام. ومع قدوم الإسلام (في القرن السابع الميلادي)، أصبحت فلسطين نواةَ العالم الإسلامي تشكل القدس مركزها الروحي والجيوسياسي. وبالتالي، فإن محاولة إنشاء دولة عرقية قومية يهودية على أنقاض فلسطين ليس بجديد، مع المحاولة المستمرة للقضاء على المقاومة بأي ثمن- وهذا هو الهدف الأساسي لمؤسسي إسرائيل .

وتُعتبر الإبادة الجماعية التي نشهدها في غزة الآن تتويجاً لأكثر من قرن من الإمبريالية الأوروبية والصهيونية العالمية والتواطؤ والخداع الغربي .

وكان التهجير القسري وإقصاء الشعوب منهجَين راسخَين دائمًا في التاريخ الصهيوني وفي المجتمع الإسرائيلي .

فقد بدأ الاستعمار الصهيوني جذور التهجير مع تفكك الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وبعد الحرب، منحت عصبة الأمم في نشأتها كُلّاً من بريطانيا وفرنسا سلطة استعمارية تسمى الانتداب على الأراضي العثمانية السابقة.

وبموجب المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم للعام 1920، تقرر أن تقوم هاتان الدولتان بحكم منطقة الهلال الخصيب -العراق وسورية ولبنان والأردن (شرق الأردن آنذاك) وفلسطين- حتى يحين الوقت الذي يمكن أن تصبح فيه هذه المناطق مستقلة. وقد حققت جميع دول الانتداب درجات متفاوتة من الاستقلال، باستثناء فلسطين .

وقد عمل كادر صغير من الصهاينة الأوروبيين المؤثرين على التأكد من بقاء فلسطين تحت السيطرة البريطانية، مع العلم بأن الانتداب البريطاني على فلسطين الذي اعتُمد رسمياً في العام 1922 تضمن مبادئ وعد بلفور - وهو رسالة من 109 كلمات كتبها وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بلفور، يعلن فيها دعم حكومة بلاده لإنشاء "وطن قومي للشعب اليهودي" في فلسطين. ومنذ البداية، وطوال الوقت، لم تتم استشارة شعب فلسطين في كل ذلك على الإطلاق ..كما نص نظام الانتداب بشكل خاص على تطوير الأراضي الموكلة إلى سلطة الانتداب لصالح السكان الأصليين.

أما في فلسطين، وبدلاً من العمل لدعم الفلسطينيين، أنشأ البريطانيون، بالتواطؤ مع الصهاينة الأوروبيين، الإطار والمؤسسات اللازمة لإنشاء دولة يهودية في نهاية المطاف على الأراضي الفلسطينية.

وعلى سبيل المثال، تنص المادة 2 من الانتداب على ما يلي: "يكون الانتداب مسؤولاً عن وضع البلاد تحت الظروف السياسية والإدارية والاقتصادية التي تكفل إقامة الوطن القومي اليهودي".

وكان تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين أيضاً مادة ضمن أحكام الانتداب. بالإضافة إلى ذلك، اعترفت المادة 4 بـ"الوكالة اليهودية" الصهيونية كهيئة عامة لتقديم المشورة والتعاون مع البريطانيين في إدارة فلسطين للتأثير على نشوء الدولة اليهودية .

في المقابل، لم ترد في مواد الانتداب الـ28 أي إشارة إلى الفلسطينيين كشعب أو إلى حقوقهم الوطنية أو السياسية .

وبعد سنوات من الصراع، أنهت بريطانيا انتدابها في 14 أيار (مايو) 1948.

وفي اليوم نفسه، أعلنت إسرائيل إنشاء دولتها، وشرعت في تنفيذ سياسة الطرد "خطة داليت" Plan Dalet كناية عن التطهير العرقي الرامية إلى تدمير المدن والقرى الفلسطينية وإعادة توطينها باليهود .

لا شيء يعود إليه

في هذا السياق، كتب زئيف جابوتنسكي المولود في روسيا، الصهيوني التصحيحي المؤثر الذي قدّم الخريطة الأيديولوجية لحزب الليكود المستقبلي في إسرائيل، عن المشاعر نفسها، إدراكاً منه للقيود المالية التي يعاني منها يهود أوروبا، كتب في نوفمبر عام 1939 إلى زميل له في الحزب: "يجب أن ندفع اليهود الأميركيين إلى جمع نصف مليار دولار من أجل أن يستوعب العراق والمملكة العربية السعودية العرب الفلسطينيين؛ فإذا كان من الممكن ترحيل شعوب البلطيق، فإنه من الممكن أيضاً ترحيل العرب الفلسطينيين". ومن الواضح أن "خطة داليت" وما أشار إليه أول رئيس وزراء إسرائيلي، ديفيد بن غوريون، في العام 1938 باسم "الترحيل القسري" هما خطة إسرائيل لإخلاء غزة من سكانها.

ولكن، على عكس ما حدث في نكبة العام 1948 عندما تم إجبار 780.000 فلسطيني بالعنف الغاشم على ترك أرض أجدادهم، لا يمكن للنظام الإسرائيلي أن ينفذ سراً عمليات طرد جماعي لسكان غزة الآن كما فعل في ذلك الوقت .

ولذلك، لجأ إلى جعل غزة غير صالحة للسكن وغير قادرة على دعم الحياة. ولتدمير الذاكرة الجماعية للفلسطينيين، قام الجيش الإسرائيلي بطمس ومحو أحياء بأكملها حتى لا يكون هناك شيء يمكن التعرف عليه؛ أي - لا شيء للعودة إليه .

ومن خلال حرمان سكان غزة من الغذاء والماء والدواء والكهرباء والوقود، فإن بعض المسؤولين الإسرائيليين، مثل اللواء المتقاعد غيورا آيلاند الذي يواصل تقديم المشورة لوزير الدفاع الإسرائيلي، يرون في انتشار الأمراض أداة للحرب أيضًا. وقد أفصح آيلاند بوحشية: إن الأوبئة الشديدة في جنوب قطاع غزة ستجعل النصر أقرب.

إن خطة إسرائيل هي جعل الحياة في القطاع لا تطاق بحيث لا يكون أمام سكان غزة خيار سوى المغادرة أو الموت.

ولتنفيذ مخططه، كان الكيان الإسرائيلي عاكفًا على إرساء الأساس ويحاول بناء الدعم الدولي لعمليات الطرد الجماعي الدائم للمدنيين في غزة إلى مصر والأردن، اللذَين يرفضان هذه الخطط حتى الآن. وعلى الرغم من أن الكيان الإسرائيلي غيَّر في وقت لاحق مساره بشأن خطة التهجير، إلا أن الرئيس الأميركي جو بايدن أعطى تل أبيب في البداية الضوء الأخضر لتنفيذ عملية تطهير عرقي في غزة.

وفي 11 أكتوبر الماضي أكد وزير الخارجية الأميركية أنتوني بلينكن أن واشنطن تعمل مع مصر وإسرائيل لإنشاء ما أسماه "ممراً إنسانياً" في سيناء للفلسطينيين الفارين من غزة. وفي 20 أكتوبر تم إرسال طلب تمويل رسمي إلى الكونغرس "لتلبية الاحتياجات المحتملة لسكان غزة الفارين إلى البلدان المجاورة".

الصهيونية في الروح الغربية

ليس الرئيس بايدن سوى واحد فقط من العديد من الرؤساء الأميركيين الذين احتضنوا إسرائيل؛ فقد تورطت الولايات المتحدة بعمق في جرائم إسرائيل ضد الإنسانية منذ البداية الأولى. ففي 14 مايو 1948 أصدر الرئيس هاري ترومان على عجل بيانًا يعترف فيه رسمياً بدولة إسرائيل الجديدة، وكان أول زعيم عالمي يفعل ذلك. وقد أرسل البيان إلى الصحافة من دون إخطار مسبق لكبار مسؤوليه في وزارة الخارجية ومندوبي الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة.

في تقديمه لكتاب إسرائيل شاحاك الصادر في العام 1994، "التاريخ اليهودي؛ الدين اليهودي"، كتب غور فيدال أن "جون كينيدي أخبرني كيف تخلى الجميع عن هاري ترومان في العام 1948 عندما قرر الترشح للرئاسة. وعندئذٍ أحضر أحد الصهاينة الأمريكيين مليوني دولار نقدًا، في حقيبة، إلى قطار حملته الانتخابية المسرع. وكان هذا هو السبب في صدور اعترافنا بإسرائيل بتلك السرعة" .

ومنذ العام 1948، أنفقت جماعات الضغط المؤيدة لإسرائيل ملايين الدولارات لضمان عدم ابتعاد السياسيين الأميركيين أبدًا عن دعم إسرائيل. كما أصبحت ضغوطهم تحدد المشهد السياسي الأميركي. وكان بايدن، على سبيل المثال، الذي يفخر بكونه صهيونيا فخرياً، هو المتلقي الأول لأموال اللوبي الإسرائيلي. ومنذ العام 1990، تلقى مقابل دعمه القوي أكثر من 4 ملايين دولار من الجماعات الموالية لإسرائيل. وبينما يعلن البيت الأبيض على الملأ أنه شدد للكيان الصهيوني على أهمية تقليل الخسائر في صفوف المدنيين الفلسطينيين، فإنه يواصل تزويد الجيش الإسرائيلي بالقنابل التي يستخدمها لإبادة السكان المسجونين في القطاع. وقد وافق بلينكن، للمرة الثانية في ديسمبر 2023، على البيع "الطارئ" للأسلحة لإسرائيل دون الرجوع إلى الكونغرس. وعلى الرغم من أن عدد القتلى المدنيين في غزة تجاوز 23.000 شخص، مع أكثر من 60.000 جريح ونحو 25,000 طفل أصبحوا أيتامًا بسبب القنابل الإسرائيلية، وافق بلينكن على بيع أسلحة "طارئة" أخرى بقيمة 147.5 مليون دولار لإسرائيل.

في تناقض مع وعده بـ"استعادة روح أميركا"، ألقى بايدن بقوة بالبلاد وسمعتها وراء الكيان الإسرائيلي العنصري العازم على محو الشعب الفلسطيني .

ومن المؤكد أن قراراته بتوفير حماية الولايات المتحدة وتمويلها وتوريطها عسكرياً في جرائم الحرب الإسرائيلية غير مفهومة .

ومن غير الواضح أيضا كيف تخدم هذه السياسات التي ينتهجها بايدن مصالح أميركا قصيرة الأجل أو طويلة الأجل أو الأخلاقية.

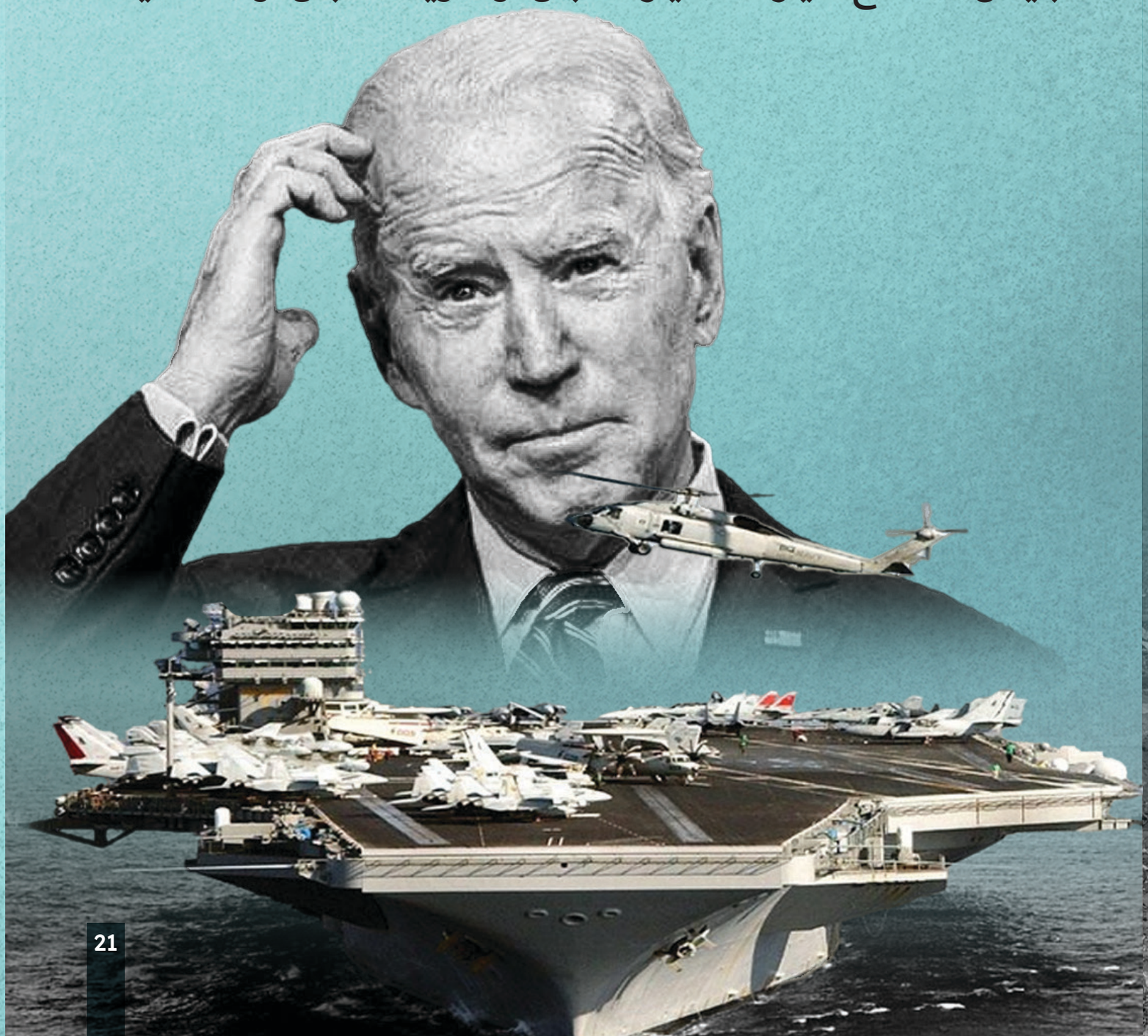

التطرف عقيدة والقتل واجب

لقد كشفت همجية إسرائيل عن روح "القوة تصنع الحق" التي تعتنقها، والمعرَّفة في الكتابات الأساسية لجابوتنسكي، الذي حرك أيديولوجية القوة الإسرائيلية. كما كشفت حرب إسرائيل على غزة عن قسوة ووحشية الحكومة الأميركية التي وضعت نفسها في موضع المموِّل للإبادة الجماعية التي تنفذها إسرائيل اليوم.

في مقاله المنشور في العام 1923 بعنوان الجدار الحديدي، جادل جابوتنسكي بأن الأخلاق والضمير لا يمكن أن تملي السياسة الصهيونية، وبأن التطرف والقوة هما جزء لا يتجزأ من تحقيق الدولة اليهودية .

وجاء في توجيهاته: إن الصهيونية هي مغامرة استعمارية، وهي بالتالي تقف أو تسقط بمسألة القوة المسلحة، وإن من المهم أن تبني، من المهم أن تتحدثَ العبرية، ولكن لسوء الحظ، من المهم أكثر أن تكون قادرًا على إطلاق النار .

لقد تلطخت شهادة ميلاد إسرائيل بدماء الفلسطينيين، ولن يكون لها مكان في الشرق الأوسط حتى تضع البندقية وتتخلص من أيديولوجية القوة والإقصاء. فعلى مدار أكثر من قرن، عانى الفلسطينيون من مظالم لا توصف دبرتها بريطانيا وإسرائيل والولايات المتحدة .

ولا يمكن التعويض عن الجرائم المروعة التي ارتُكبت ضدهم إلا عندما تنتهي النكبة المستمرة التي يعيشونها، ويؤدي نضالهم ضد الفصل العنصري إلى تحرير فلسطين .

المركز القطري للصحافة
QATAR PRESS CENTER

QatarPressC